الرد على شبهة أن منهج أهل السنة والجماعة في الرد هو عدم ذكر اسم المخالف واستشهادهم بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « ما بال أقوام »

قال الشيخ العلامة محمد بن هادي المدخلي في الرد على من يقول هذا الكلام : (نقول : إن مثل هذا كمثل الجمل الأعور ، الذي مر بأرض ذات ربيع ، وجانب منها قد أُكل ورُعي ، ولكنَّ العين السليمة ، في الجانب الذي قد أُكل ورُعي ، فلا يرى إلا هذا ، ويترك الخير الكثير ؛ لأنه لا يراه ، وهويناً و رويداً ، فكلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كله ربيع ، أرض مخضرة ، فإنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة نقية قبلت الغيث فأنبتت العشب والكلأ الكثير » فكلامه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كله ربيع ، ولكن الأرض النقية هي قلوب من يرِد عليها هذا الكلام ، فتنتفع في نفسها وتنفع غيرها ، وهذا الذي مثّلناه بالجمل الأعور لايرى إلا كلام معظميه – الذين يعظمهم – وشبههم التي قد أطلقوها ، فذهب يتمسك بها وهو لا يعرف ، فنقول له نعم ، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « ما بال أقوام » عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، ولكنّه قال أيضاً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « من بالباب ؟ » قالوا : فلان ، وفي رواية « من هذا ؟ » قالوا : فلان ، قال : « بئس أخو العشيرة » . وجاءت فاطمة إليه تستشيره ، فقالت : إن معاوية وأبا جهم قد خطباني ، فقال لها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « أما معاوية فصعلوك لا مال له » يعني : فقير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذلك الحين ، « وأما أبوجهم فضراب للنساء » ، فنصحها ، وبين في كل واحد منهما عيباً يمنعها من إجابة كل واحد منهما – هذا أوهذا فإذا تنازلت هذا عائدٌ إليها – ، ثم أشار عليها بالأصلح فقال : « انكحي أسامة » – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إن آل فلان وآل فلان ليسوا لي بأولياء » إلى غير ذلك من الأحاديث التي وردت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقصة بريرة أيضاً حينما جاءت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تستعينها في فكاك رقبتها ، فاشترط مواليها أن الولاء لهم ، فقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر خطيباً مغضباً ، فقال : « ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليس في كتاب الله » فهذا الحديث جمع بين الأمرين ، جمع ما بين قوله " ما بال أقوام " وما بين رده على هؤلاء وهم معروفون أيضاً وهم موالي بريرة – ليسوا مجهولين – ، ثم قال لعائشة : « اعتقيها وليشترطوا ما اشترطوا ، كتاب الله أحق وقضاؤه أمضى ، إن الولاء لمن أعتق » أو كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى غير ذلك من النصوص ، فورد عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال هذا ، وورد عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنها قال هذا .

فنحن نقول : الجمع بين هذه النصوص حيث يجب الستر على صاحب الغلط ، بألا يكون معروفاً بالبدعة ولا بمخالفة السنة ولا بكثرة الشذوذات ولم يشتهر عنه هذا القول ولم يذع ، وإنما صار بينه وبين بعض إخوانه أو من تناقش معه ، أو كان من ذوي المروءات ، أو ممن يرجى أن يناقش على حدة وانفراد ، نعم نقول هذا " ما بال أقوام " ؛ لأنّا إن فعلنا الأول لم يكن صواباً ولم يكن صاحبه موفقاً ، فمثل هذا أن ينبغي أن يقال فيه " ما بال أقوام " ، فحصلت النصيحة وحصل التوجيه والإرشاد والتصحيح وبيان الغلط وحفظ لصاحبه ما تعرفون ، أما الثاني حينما يشتهر بمخالفته ويذيعها بين الناس وينتصر لها ، وزيادة على ذلك يدعو إليها ، هذا كيف يحذره الناس؟! لابد أن يقال في مثل هذا : فلان احذروه ؛ وقد كان السلف – رحمهم الله تعالى – يفعلون ذلك ، بل كان بعضهم يطوف حول البنية المعظمة – الكعبة – وهو يقول : فلان كذاب ، احذروه ! فلان وضّاع ، احذروه ! ؛ حتى يشهر هذا في أهل الجمع ، فينتشر ؛ فالقصد من ذلك حماية سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ولو فرضنا وتنزلنا وسلّمنا جدلاً أن في هذا تشهيراً لكانت المفسدة التي فيه أقل من أختها ، وهي الكذب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونسبة شيء إلى الدين ليس منه ، فأيهم أعظم منكراً ؟ لاشكّ أن هذا أعظم ، فلو فرضنا أن هذه مفسدة لقلنا : إن هذا من باب [ارتكاب أدنى المفسدتين درءاً للعظمى] – لو قلنا وسلّمنا وتنزلنا. –

فحينما يقال بهذا القول نجد منهم أسعد الناس بما بال أقوام ؟

أسعد الناس هم الذين جمعوا بين النصوص والأدلة ، فمثلاً إذا كتب الكاتب في مقابلتك أنت أيها الزاعم بهذا الزعم وتكلم على ما أنت عليه ، لماذا لا نجد عندك ما بال أقوام ؟ ليش ؟

بل هو يكتب ويرد ، ويرقى المنبر ويخطب ، ويستكتب آخرين في اللقاء القادم في العدد – إذا كان أسبوعياً أو حولياً أو شهرياً – يطلب آخرين أن يكتبوا ويردوا ، ويتصل بخطباء لأن يخطبوا ويسجل وينشر هذا ، فين ذهبت « ما بال أقوام » ؟ راحت ، أين هي ؟ فحينئذ تعرف أن مثل هؤلاء يكيلون بمكيالين ويزنون بميزانين ، إذا كالوا لأنفسهم قالوا بالأول ، وإذا اكتالوا لأنفسهم ضد من يخالفهم قالوا بالثاني ، هذا مثال ، والدليل على ذلك ذكرناه في تلك الحقبة ، ولعل بعضكم ولا أقول جميعكم ، لكن لعل البعض منكم ما أدرك ذلك الوقت – قبل سبعة عشر عاماً – ، شخص واحد يقول مقالة في مقابل بعض هؤلاء الرموز ، فتأتي في خلال شهر أربعة كتب مطبوعة على الورق الصقيل والإخراج الجميل من أربعة من هؤلاء الرموز مع

أن الكلام كان على واحد !! ثم بعد ذلك الخطب شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وبعد أيام تدول وتدور الدائرة وإذا به يسأل : الخلاف الذي بينك وبين فلان ؟ قال : عفى الله عما مضى ، ويطوى ولايروى ، وتعاونٌ على البر والتقوى ، وهو بالأمس وهو يقول : فلان علماني !! طيب ، علماني كيف أنت الآن تقول نتعاون على البر والتقوى ؟! هل يرجى من العلماني أنه يعاونك على البر والتقوى ؟! اسألكم ، هل يرجى من العلماني – يعني لا تقول أنه أنت علماني ، لكن على دعوى هذا المدعي – هل يرجى من العلماني أن يتعاون معك على البر والتقوى ؟! ما يمكن ؛ لأنه ما يعرف البر والتقوى ، فانتقل بين عشية وضحاها إلى هذا . بينما أهل السنة يقولون : لا ، لو كان هذه الحادثة أو غيرها حدثت عندنا المقياس واحد ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ ، ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الإسلام يجب ما كان قبله » وفي لفظ : « يهدم ما كان قبله » و « التوبة تهدم ما كان قبلها » ، فهل سمعت أنت الآن – أيها القائل – تعاوناً على البر والتقوى ، وعفى الله عما مضى ، ويطوى ولايروى ، وودٌّ وأخا ، وصفاء ونقى ، هل سمعت أنه تاب ؟! هذا الذي تتهمه أنت !! – بغض النظر أنا أوافقك على تهمتك له ولّا لا ؛ هذا باب آخر – لكن هل ثبت عندك الآن أنه تاب ؟ أنتم تقولون لابدّ من التوبة طيب فين هذا ؟ تعرفون بهذا أن هؤلاء يتلاعبون بعقول الناس . ولكن للأسف !! مع هذا كله ، تجد عند هؤلاء قدرة على السيطرة على زمام الإعلام ، ولكن ليس يصح إلا الحق ، والباطل مهما طال ، فإن نهايته إلى اضمحلال) .[1]

للاستماع :

https://youtu.be/od-25z3jPSw

---

(١) شريط بعنوان : جلسة في استراحة الفجر ، يوم الأربعاء الموافق ٢٧ / ١٢ / ١٤٢٧ هـ .